الفصل الثالث
ظهور الإسلام

كان محمد (ص) في الأربعين من عمره ، عندما هبط عليه الوحي وهو يتعبد ويتأمل في غار حراء ، وبعد أن أعدته للعناية الإلهية إعداداً روحياً وفكرياً لهذه الساعة العظيمة . وكان بدء نزول الوحي يوم الاثنين، ١٧ رمضان، وتراءى له جبريل فقال له: «اقرأ» . فأجاب: « ما أنا بقاريء »، فشده جبريل إليه ، وأعاد عليه القول ، وأجاب محمد (ص) نفس الجواب ، فشده ثانية بقوة ، ثم أطلقه ، وقال له : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » . فكانت هذه الآيات أول ما نزل من القرآن الكريم

أصيب محمد (ص) ، على أثر نزول الوحي عليه ، باضطراب وفزع شديدين ، وأسرع إلى زوجه الحنون، وهو يقول : «زملوني ، زملوني» فزملته ، حتى ذهب عنه الروع ، وهدأت نفسه ، فقص على خديجة ماحدث له ، وما سمع ، وقال: « قد خشيت على نفسي ». ولكن خديجة ،

بقلبها الكبير، وفكرها الثاقب، ونفسها المطمئنة، أجابته: «ابشر، يا ابن عم، واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، ووالله لا يخزيك الله أبداً: إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق». وشعر محمد (ص) بالراحة، واطمأن إلى كلام خديجة، ثم انطلقت به إلى ابن عمها، ورقة بن نوفل، وكان شيخاً كبيراً يحفظ الإنجيل.

فأخبره محمد (ص) بما حدث له في الغار، فقال ورقة: «هذا الناموس (الملك)، الذي نزل على موسى، يا ليتني كنت فيها جذعاً، إذ يخرجك قومك»: فقال محمد (ص): «أو مخرجي هم؟» فأجابه ورقة: «لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركني يومي، أنصرك نصراً مؤزراً.» وازداد محمد (ص)، بعد أقوال ورقة، اطمئناناً. أما ورقة فلم تطل أيامه، بل مات، بعد قليل.

ولما نزل الوحي مرة أخرى، أصابت محمد (ص) حالة من الفزع، إثر رؤيته ذلك الملك، فأسرع، من الغار إلى الدار، وهو يقول: «دثروني، دثروني». فجاءه الوحي يقول: (يا أيها المدثر، قم فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر، ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر)). وبذلك صدر الأمر الإلهي إلى محمد (ص) أن يبدأ دعوته، وينذر قومه، ويكبر ربه.

وكان من الطبيعي أن يؤمن بدعوة الرسول (ص) أهل بيته: خديجة، زوجه الوفيه، وعلي بن أبي طالب، ابن عمه المخلص، وزيد

بن حارثة ، المولى ، الذي تبناه محمد (ص) وكيف لا يؤمن هؤلاء ؟ وهم الذين عاشوا مع محمد (ص) في دار واحدة ، وعرفوا أمانته ، وعظم خلقه ، وسمو نفسه ، فأحبوه حباً جما . وهكذا تكونت أول خلية دخلت في دين الله :

وانطلق محمد (ص) إلى ميدان جديد إلى أصدقائه المقربين ، وأقربهم إليه أبو بكر بن أبي قحافة ، فقص عليه الخبر ، ودعاه إلى عبادة الله وحده ، وترك ما يعبد القوم من أصنام وأوثان . وسرعان ما صدق وآمن ، لأنه عرف ، قبل ذلك اليوم ، حقيقة صديقه ، محمد (ص) ، وما يحمل بين جنبيه من أمانة وصدق واستقامة . وكان أبو بكر تاجراً ، عرف بحسن خلقه ومعاملته ، كما كان عالماً بأنساب قريش ، وكان له أثر كبير في الدعوة الإسلامية . حيث أسلم على يديه كثير من الرجال ، أشهرهم : عثمان بن عفان ، وعبدالرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيدالله . وتلا هؤلاء في اعتناق الإسلام ، والإيمان بنبوة محمد (ص) : أبو عبيدة بن الجراح ، والأرقم بن أبي الأرقم ، الذي جعلت داره مركزاً لبث الدعوة ، واجتماع المسلمين .

استمرت الدعوة سرية ثلاث سنوات ، يدعي إلى الإسلام من يوثق به من الأفراد ، ويطمأن إلى تلبيته ، وحسن استعداده . وكان المسلمون يصلون في بيوتهم ، أو في بعض الشعاب ، أو في دار الأرقم ، ويرتلون ما يتلوه عليهم رسول الله (ص) من الآيات ، التي يهبط بها

للوحي عليه.

وبعد ثلاث سنوات من بدء البعثة، أمر النبي (ص) أن يجهر بالدعوة: (فاصدع بما تؤمر، وأعرض عن المشركين، إنا كفيناك المستهزئين)، كما اوحى إليه أن (أنذر عشيرتك الأقربين، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين، فأن عصوك، فقل إني بريء مما تعملون) وأخذ محمد (ص) يسلك طريق الجهر بالدعوة، برفق ولين، وصنع طعاماً ودعا إليه بني عبد المطلب، ووقف الرسول (ص) يدعوهم إلى الإسلام ويقول (إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة). فانصرف معظمهم مستهزئا، ساخراً. ثم دعا بطون قريش، فاجتمعت في ظاهر مكة، وقال لهم (ارايتم لو اخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم، اكنتم مصدقي؟) قالوا «نعم»، «ما جربنا عليك كذباً». فقال: (إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، إن الله امرني ان أنذر عشيرتي الأقربين...). ونهض عمه، أبو لهب، غاضباً وهو يقول «تباً لك، ألهذا جمعتنا؟» فنزل فيه قول الله تعالى: (تبت يدا أبي لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيصلى نارا ذات لهب).

وأخذ محمد (ص) لا يترك مناسبة إلا ويقف محذرا قومه من يوم (لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم)، (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث، وتكون الجبال كالعهن المنفوش). ثم يبين لهم انه لا ينفع يومئذ إلا العمل الصالح، يوزن في ميزان العدالة الإلهية «فأما من ثقلت موازينه، فهو في عيشة راضية. وأما من خفت موازينه، فأمه

هاوية ، وما أدراك ماهيه ، نار حاميه » . ويضرب لهم الأمثال بمن كفر من الأقوام الأولى : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذي الأوتاد ، الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ؟ إن ربك لبمرصاد). ويذكرهم بنعم الله عليهم. فيقول: (فليعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف) .

أخذ الإسلام طريقه إلى القلوب ، وبدأت دار الأرقم تستقبل كل يوم وجهاً مؤمناً جديداً ، يزيد في عدد المسلمين وقوتهم . ورأى زعماء قريش في استمرار الدعوة خطراً يهدد أصنام الكعبة ، وآلهة العرب، ويفقد مدينتهم ،مكة ،مركزها الديني ، وبالتالي يفقدهم المكانة السامية بين القبائل ، باعتبارهم حماة مكة ، وسدنة كعبتها ، كما يفقدهم الأرباح الطائلة ، التي تتدفق ، كل عام ، في موسم الحج ، إلى جيوبهم ، لقد تراءى لهم ، في انتصار محمد ودعوته ، فقدان الأمجاد ، وخسارة الأموال ، فقاموا يخبطون خبط عشواء . وبدأت حربهم له : بتكذيبه واتهامه ، والحط من شأنه . ووجهوا إليه شعراءهم بالقدح والهجاء ، وأوفدوا إليه من يسألونه المعجزات ،فطالبوه ،بمعجزات، كمعجزات موسى وعيسى ، وأن يأتيهم بكتاب من الله مخطوط ، يقرأونه ، وأن يقلب جبال مكة ذهباً ،وأن يحيى الموتى ، أو يسير الجبال . كل ذلك في جو

من الهزؤ والسخرية ، لإضعاف شأنه ، والحط من مكانته بين أصحابه، وبين أهل مكة . وكان محمد (ص) يجيب بقول الله تعالى : « قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ، إلا ما شاء الله . ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما مسني السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » .

لم تكن قريش المشركة لتهتم بأمر الإسلام ونبيه ، ومن اجتمع عليه من النفر ، إلا قليلا ، لولا أن بدأ محمد يطعن أصنامهم وأوثانهم ، وينفي ألوهيتها وقدسيتها ، ويقرر أنها حجارة لا تنفع ولا تضر . وشعرت قريش بخطر ذلك ، فلم تسكت عن تحقير النبي (ص) لآلهتها ، وآلهة آبائها وأجدادها ، وتقدم وفد يمثل المشركين في مكة ـ ومنهم : أبو جهل ، والوليد بن المغيرة ، وعتبة بن ربيعة ـ إلى عمه ، أبي طالب ، وهو مثلهم ، لم يتابع محمداً على دينه ، وقالوا له : « يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلي بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلاف ، نكفيكه » فاختار أبو طالب بين أن يكلم ابن أخيه . وقد ملأ الإيمان قلبه ، فيغضبه ، أو أن يتركه وشأنه ، فيغضب قومه . وطالت حيرته . ولم تجد قريش المشركة أثراً لوفدها الأول ، بل مازالت ترى محمداً يجد في دعوته ، ويشتد في حربه للوثنية والشرك ، ويجتمع حوله نفر لا يفرق بين سيد منهم وعبد ، ولا بين قرشي ومولى : فقد أزال

للفوارق ، فزاد ذلك من غضبهم ، لأنه أطمع بهم الموالي والعبيد ، وسار وفدهم إلى أبي طالب مرة ثانية ، وثالثة ، وقالوا له : « يا أبا طالب ، إن لك سنا وشرفاً ومنزلة فينا ، وقد استهيناك من ابن أخيك ، فلم تنهه عنا ، وإنا والله لانصبر على هذا : من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا . حتى تكفه عنا ، أو ننازله إياك ، حتى يهلك أحد الفريقين » . واشتد الأمر على أبي طالب ، وسمع تهديد قومه ، ورأى أن يطلع محمداً على مايجري ، عساه يقدر ظروف عمه ، ويخفف من هجومه على آلهة قومه . وأتى بابن أخيه ، وقص عليه خبر قريش ، وأنهى حديثه بقوله : « فأبق علي ، وعلى نفسك ، ولاتحملني من الأمر مالا أطيق » . وهنا تجلى الإيمان في شخص للرسول الكريم ، وقد رأى مايشبه الخذلان من أقرب الناس إليه ، وأكثرهم عطفاً عليه ، وأجاب عمه الجواب الحاسم ، مؤكداً له بعده عن كل خوف وإغراء . وقال : « ياعم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ، ماتركته » . وأغرورقت عيناه بدموع الأسى ، حين رأى من حماه صغيراً ، يبتعد عنه كبيرا ، وهو في ذلك لايرجو الحماية إلا من الله ، أو يهلك في سبيله . وحركت كلمات الإيمان قلب أبي طالب . فقال لابن أخيه : « اذهب ، يا ابن أخي ، فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء تكرهه أبداً » .

أخذت قريش ، وقد يئست من وساطة أبي طالب ، تشن حملات الإيذاء والاضطهاد ضد محمد وصحبه : فهذا أحدهم يشتد على محمد عند الكعبة ، ويحاول خنقه ، فيتخلص منه بمساعدة أبي بكر . وهذا يلقي بالتراب عليه ، وهذا يسمعه كلام الهزؤ والسخرية . وهذا أبو جهل ، يمر بمحمد ، فيشتمه ، ويضربه ، ويعيب عليه دينه . ويسمع بالأمر عمه ، حمزة ، فتثور مروءته ، ويتحرك الإيمان في قلبه ، أمام صبر ابن أخيه ، وأخيه في الرضاع ، على أذى قومه ، ويسرع إلى الكعبة ، ويجد هناك أبا جهل ، فيضربه بالقوس ، ويشجه . ثم يسير إلى محمد . ويعلن إسلامه ، فيعتز به الإسلام ، ويفرح به المسلمون ، لما عرفوه عن جرأته وقوته .

لقد أصاب الأذى والعذاب كل من اعتنق الإسلام ، لاسيما تلك الفئة المستضعفة من الموالي والعبيد ، وطارد المشركون أولئك المسلمين في كل مكان ، وتفننوا في تعذيبهم : فهذا يأتي بعبده « بلال الحبشي » فيطرحه أرضاً ، تحت الشمس المحرقة ، ويضع الصخر على صدره ، ويقول له : « اكفر بمحمد وربه » . فلا يزيده العذاب إلا إيماناً ، ويقول « أحد ، أحد » ، إلى أن اشتراه أبو بكر ، وأعتقه . وكان المشركون من قريش يخرجون « عمار بن ياسر » ، وأمه وأباه ، إلى ظاهر مكة ويعذبونهم فوق الرمال المتوهجة ، ويمر بهم محمد (ص) ، فيقول : « صبراً آل ياسر

موعدكم الجنة». ولما مات الأب، ياسر، من شدة العذاب، أغلظت زوجه «سمية» القول لأبي جهل. فطعنها بحربة فقتلها. فكانت أول شهيدة في الإسلام. وبقي «عمار» تحت السياط والتعذيب، حتى كتب الله النصر للإسلام. كذلك عذب «خباب بن الأرت» على الرمضاء كما عذبت جارية موامل بن عدي، واسمها «لبينة»، كان يعذبها عمر بن الخطاب حتى يمل فيقول: «إني لم أدعك إلا سآمة»، وبقيت في هذا العذاب حتى اشتراها أبو بكر، فأعتقها.

وكانت آخر محاولة لقريش المشركة مع أبي طالب أن سارت إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة تقول له: «يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، أنهد فتى في قريش، وأجمله، فاتخذه ولداً، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا، الذي خالف دينك، ودين آبائك، وفرق جماعة قومك. وسفه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل». فيجيب أبو طالب: «والله لبئس ما تسومونني، أتعطوني ابنكم، أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا، والله، مالا يكون أبداً». واشتد الجدل والنقاش، وخرجت قريش، ممثلة في وفدها، غاضبة، وقد عزمت على الكيد لمحمد وصحبه. أما أبو طالب فقد دعا بني هاشم وبني المطلب إلى نصرة ابن أخيه، وحمايته من كيد المشركين، فأجابه الجميع إلى ما دعاهم إليه، إلا أبو لهب، الذي إنضم إلى الخصوم.

خاف مشركو قريش انتشار دعوة الإسلام بين العرب، وفي

كل صباح يسمعون اعتناق عدد جديد منهم لهذا الدين ، وقد سحرتهم آياته ، ببلاغتها ومعانيها ، ودفعتهم إلى الكفـــر بآلهتهم . فزعزعت قواعد الشرك في قلوبهم : إنه يدعوهم الى عبادة خالق السموات والأرض ، ومدبر الكون ، ومنظم أفلاكه وكواكبه : (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون) « وفي انفسكم أفلا تنظرون ؟» إنها دعوة للتفكير ، تدفع المحايدين ، غير المعاندين ، إلى سلوك طريق العقل ، فيكفرون بأوثانهم وأصنامهم ، ويقفون امام آيات الله ، تتلى عليهم « أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال : من يحي العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم ». ثم يقفون مرة أخرى مشدوهين ، يستمعون إلى قوله تعالى : « إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين ، وفي خلقكم ، وما يبث من دابة ، آيات لقوم يوقنون ، واختلاف الليل والنهار ، وما أنزل الله من رزق ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، وتصريف الرياح ، آيات لقـوم يعقلون ، تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، فبأي حديث ، بعد الله وآياته يؤمنون؟ ويل لكل أفاك أثيم ، يسمع آيات الله تتلى عليه ، ثم يصر مستكبراً ، كأن لم يسمعها ، فبشره بعذاب أليم ». وكانت هذه الآيات أشد ما يخشاه مشركو قريش على قلوب العرب ، خاصـــة في موسم الحج ، أن تسحرهم ، فينقلبوا مسلمين .

اجتمع نفر من قريش، ومعهم الوليد بن المغيرة (المخزومى)، الذي قال لهم: «يامعشر قريش، إنه قد حضر الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقدسمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً؛ ولا تختلفوا، فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً.» فقالوا له: «فأنت يا أبا عبدشمس فقل، واقم لنا رأياً، نقل به.» قال: «بل أنتم فقولوا، أسمع». قالوا: نقول، كاهن». قال «والله ماهو بكاهن، لقد رأينا الكهان، فما بزمزمة الكاهن ولاسجعه». قالوا «فنقول مجنون» قال: «ماهو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه (تحرك الأعضاء من غير إرادة) ولا وسوسته» قالوا: «فنقول شاعر». قال «ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله: رجزه، وهزجه، وقريضه، ومقبوضه، ومبسوطه، فما هو بالشعر». قالوا: «فنقول ساحر». قال: «ماهو بساحر، لقد رأينا السحار، فما هو بنفثهم ولا عقدهم». قالوا: «فما نقول، يا أبا عبد شمس؟» قال: «والله، إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لحزن (كثير الشعب والأطراف)، وإن فرعه لجناه (أي فيه ثمر يجنى)، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً، إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر، جاء بقوله، هو سحر يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته». فتفرقوا عنه، وجعلوا يجلسون بسبل الناس، حين قدموا الموسم، لايمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا له أمره.

لم تفلح محاولات مشركي قريش في منع انتشار الإسلام، على الرغم من استمرار أعمال الاضطهاد والتعذيب ضد المسلمين ونبيهم. ففكر القوم في محاولة أخيرة، لإغراء محمد بالجاه والمال، لصرفه عن دعوته، وكان سفير قريش، في هذه المحاولة، عتبة بن ربيعة، فاجتمع إليه، وقال له: « يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من المكان في النسب، وقد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم. فاسمع مني أعرض عليك أموراً، لعلك تقبل بعضها: إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد تشريفاً، سودناك علينا، فلا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا (تابع من الجن) تراه، لاتستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ. » وعندما فرغ عتبة من كلامه، تلا عليه رسول الله (ص) آيات من سورة السجدة. ثم انصرف عتبة، مأخوذاً بما رأى وسمع. وكأن مشركي قريش أدركوا ذلك في وجهه، فسألوه: « ماوراءك يا أبا الوليد؟ » قال: « ورائي أني سمعت قولا، والله ماسمعت مثله قط. والله ماهو الشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة. يا معشر قريش أطيعوني، واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله، الذي سمعت منه، نبأ عظيم، فإن تصبه العرب، فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب، فملكه ملككم،

وعزه عزكم ، كنتم أسعد الناس به » . قالوا : « سحرك والله ، يا أبا الوليد ، بلسانه » . قال : « هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم . »

تألم الرسول (ص) لما كان يصيب المسلمين ، والمستضعفين منهم خاصة ، من إيذاء قريش وتعذيبهم لهم ، وفكر في اختيار منطقة يهاجرون إليها ، وفضل أرض الحبشة ، فقال لهم : (لو خرجتم الى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه) . ومن الطبيعي ألا يفكر محمد (ص) في منطقة عربية ، يهاجر إليها المسلمون ، فمعظم المناطق على الوثنية ، ولقريش بين قبائلها المنزلة الرفيعة ، فلن يقف الأذى ضد المسلمين . وحتى في مناطق النصارى واليهود ، سيكون النظر اليهم على أنهم منافسون أما الحبشة فهي بعيدة عن قبضة قريش ، مع سهولة للسفر إليها .

بدأت الهجرة إلى الحبشة خفية . فهاجر عشرة رجال ، (وقيل أحد عشر رجلا) . وأربع نساء . وكانت أول هجرة في سبيل الإسلام . وازداد عدد المهاجرين ، حتى بلغ ثلاثة وثمانين رجلا ، وسبع عشرة امرأة وكثير من الأطفال . ومن مشاهير المهاجرين : عثمان بن عفان ، وزوجه ، رقية ، بنت الرسول ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وجعفر بن أبي طالب ، وعمرو بن سعيد بن العاص ، وأخوه خالد . وقد وجدوا عند النجاشي الإكرام والأمن والحماية .

خاف مشركو قريش من هجرة المسلمين إلى الحبشة . وربما قلق بعضهم من قيام تحالف إسلامي حبشي ضد مكة ، واصنامها . ويذكر

ابن هشام أنه لما رأى أهل قريش أن أصحاب رسول الله (ص) قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة ؛ وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً ، ائتمروا فيما بينهم على أن يبعثوا منهم رجلين جلدين إلى النجاشي ، ليخرجهم من بلاده ، فبعثوا عبدالله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص . ووضعت خطة المؤامرة على حمل هدايا ثمينة للنجاشي وبطارقته ، على أن تقدم الهدايا إلى البطارقة ، قبل تقديمها للنجاشي ، ليضمنوا تأييدهم لدى النجاشي . ونفذت الخطة ، واجتمع وفد قريش مع البطارقة ، وتمت المؤامرة ضد المهاجرين المسلمين . وفي الوقت المحدد ، مثل مندوبا قريش أمام النجاشي ، وقالا له : « أيها الملك ! إنه قد ضوى (أتى) إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم ، من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم ، لتردهم عليهم ، فهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه . » وأيد البطارقة هذه الأقوال – حسب الخطة المرسومة – وقالوا للنجاشي : « أيها الملك ! قومهم أعلى بهم عيناً . وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما ، فليردا هم إلى بلادهم وقومهم » ووقف للنجاشي موقف الحاكم العادل ، وأبى أن يحقق رغبة رسولي قريش إليه ، قبل أن يسمع آراء الطرف الآخر من هؤلاء المسلمين ، الملتجئين إلى جواره .

طلب النجاشي بعض هؤلاء المهاجرين إلى بلده ، فأحضروا إليه ،

فسألهم عن هذا الدين الجديد ، للذي اعتنقوه ، فكان المتكلم باسمهم «جعفر بن أبي طالب» ، فقال : « أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش . . كنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله ، لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد ، نحن وآباؤنا ، من دونه ، من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات.. فصدقناه، وآمنا به ، واتبعناه، على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، لا نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان ، من عبادة الله ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك » . فقال له النجاشي : « هل معك مما جاء به عن الله من شيء تقرأه علينا ؟ قال جعفر : نعم ، وأخذ يتلو عليه سورة مريم ، إلى قوله تعالى : « فأشارت إليه ، قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا ، قال إني عبدالله ، آتاني الكتاب، وجعلني نبيا ، وجعلني مباركا، أينما كنت ، وأوصاني بالصلاة والزكاة ، مادمت حيا ، وبرا بوالدتي ، ولم يجعلني جبارا شقيا ، والسلام علي يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حيا » . وخشع النجاشي ،

وبطارقته ، لهذه الآيات ، وقال : « إن هذا والذي جاء به موسى ، ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا ، والله لا أسلمهم إليكما » .

خرج وفد المشركين غاضبا ، وقال عمرو بن العاص : « والله لآتينه غدا عنهم بما أستأصل به خضراءهم ، ولأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد » . وذهب في اليوم التالي ، فقابل النجاشي ، وقال له : « أيها الملك ، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما ، فأرسل إليهم وسلهم عما يقولون فيه » . وأراد النجاشي التحقق مما قاله ابن العاص ، فطلب المهاجرين ثانية ، فأحضروا إليه ، فسألهم عما يقولون في عيسى بن مريم» ، فأجابه جعفر بن ابي طالب ، بقوله « نقول فيه الذي جاء به نبينا (ص) هو عبدالله ، ورسوله ، وروحه ، وكلمته ، ألقاها إلى مريم العذراء البتول » . فقال النجاشي : « والله ما عدا عيسى بن مريم ، اذهبوا فأنتم شيوم (آمنون) بأرضي ، من سبكم غرم » : وانصرفوا .

وهكذا وجد النجاشي في هذه الفئة ، الملتجئة إليه ، فئة تؤمن بالله ، وتؤمن بنبوة عيسى ، وطهارة أمه ، وهم اقرب إليه ، وإلى دينه ، من أولئك الوثنيين ، من مشركي قريش . وأخفقت سفارة قريش في مهمتها ، عند النجاشي ، وعاد الوفد إلى مكة يجر أذيال الخيبة والفشل.

ولما سمع المهاجرون في الحبشة بإسلام عمر بن الخطاب ، وقوة المسلمين ، ظنوا أن موجة الاضطهاد ضدهم قد انتهت في مكة ، فرجع بعضهم ، وقيل أنهم رجعوا جميعاً . لكنهم وجدوا أن الأذى ما زال

يلحق المستضعفين من المسلمين ، فعادوا إلى الحبشة . وعاد معهم عدد جديد من الفارين من اضطهاد قريش .

وفي السنة ، التي أسلم فيها حمزة ، عم الرسول (ص) ، وهي السنة الخامسة للبعثة ، أسلم عمر بن الخطاب ، وقد اشتد ساعد المسلمين بهذين الرجلين ، لما عرف عنهما من قوة وجرأة بين قومهما . وقد دخل عمر الإسلام بنفس الحمية ، التي كان يحارب بها ، بل ازداد حماساً واندفاعا لنصرة الدين ، الذي اعتنقه . ولم يكن بين قريش من يجرؤ على معارضته ، أو للتعرض له . وقد روى عيسى بن هشام ، أن عمر ابن الخطاب خرج متوشحا سيفه ، يريد رسول الله (ص) ، فلقيه نعيم ابن عبدالله ، فقال له : « أين تريد يا عمر ؟ » فقال : « أريد محمدا ، هذا الصابئ ، الذي فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله » . فقال له نعيم : « والله لقد غرتك نفسك يا عمر ، أترى عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدا ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ » قال : « وأي أهل بيتي ؟ » قال : « ختنك ، وابن عمك ، سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك ، فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما ، وتابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما » . فرجع عمر إلى أخته وختنه ، وكان عندهما « خباب بن الأرث » ، يقرأهما ، في صحيفة معه ، سورة طه ، فلما سمعوا صوت عمر ، اختفى خباب في البيت ، وأخفت فاطمة الصحيفة . وكان عمر قد سمع شيئا من القراءة ،

فدخل ، وقال : « ما هذه الهينمة التي سمعت ؟ » قالا له : « مـا سمعت شيئاً » . قال : « بل والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينـه » . وبطش بختنة ، سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته لتكفـه عن زوجهـا ، فضربها . عند ذاك قالا له : « نعم قـد أسلمنا ، وآمنا بالله ورسـوله . فاصنع ما بدا لك . » وندم عمر على ضربه أختـه ، وارعوى ، فقال : « اعطيني هذه الصحيفة ، التي سمعتـكم تقرأون آنفاً ، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد . فقالت له أخته : « إنا نخشاك عليها » . فأقسم لها ان يردها إليها ، بعد قراءتها . فقالت له أخته : « إنك نجس على شركك ، وإنه لا يمسها إلا المطهرون » . فقام عمر ، فاغتسل ، فأعطته الصحيفة ، فلما قرأ منها جزءاً قال : « ما أحسن هذا الكلام وأكرمه » . فخرج خباب ، عند سماعه كلام عمر ، وقال له : « يا عمر ، والله إني لأرجو أن يكون الله قـد خصك بدعوة نبيـه ، فإني سمعته أمس يقول : « اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب ، فالله الله ياعمر » . فقال له عمر : « دلني يا خباب على محمد ، حتى آتيه فأسلم » . فقـال خباب : « هو في بيت عند الصفا ، معه فيه نفر من أصحابه » . فحمـل عمر سيفه فتوشحه ، وعمد إلى الرسول (ص) وأصحابه فضرب عليهم الباب ، فلمـا سمعوا صوته ، ونظر إليه أحدهم ، من خلل البـاب ، أسرع إلى الرسول (ص) فزعا ، وقال : « يا رسول الله ، هـذا عمر بن الخطاب ، متوشحا السيف » . فقال حمزة : « فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه » .

فقال رسول الله (ص) : « أئذن له »، فأذن له الرجل ، ونهض إليه رسول الله ، حتى لقيه في الحجرة ، وقال له : ماجاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة » . فقال عمر: «يارسول الله جئتك لأومن بالله ، وبرسوله ، وبما جاء من عندالله » ، فكبر للرسول تكبيرة عرف بها أهل للبيت من أصحابه أن عمر قد أسلم .

وكان لإسلام عمر ، بعد إسلام حمزة ، أثر كبير على المسلمين، فقويت معنوياتهم.. ولم يخف عمر إسلامه، بل جهر به، وأراد أن يتحدى مشركي قريش، فأبى إلا أن يصلى مع المسلمين عند الكعبة . ولم يكن المسلمون قد فعلوا ذلك من قبل.

تآمر مشركو قريش، بعد أن رأوا لنمو قوة الإسلام ، وازدياد عدد المسلمين. واتفقوا على إعلان مقاطعة بنى هاشم، وبنى عبدالمطلب، وهم للذين أعلنوا حمايتهم لابنهم، محمد (ص) ، وذلك بأن تقطع قريش كل صلة بهم : فلا تبيعهم ، ولا تشتري منهم ، ولا تزاوجهم . وكتب المتآمرون من رجال قريش صحيفة بأمر هذه المقاطعة ، ووضعوها في جوف للكعبة، توكيداً لعهدهم . وبقيت هذه المقاطعة عامين أو ثلاثة اجتمع خلالها بنوهاشم وبنوعبدالمطلب ، في شعب أبي طالب، ولم يشذ عنهم إلا أبولهب، الذي مالأ قريشاً على عشيرته الأقربين . وقد تحمل الهاشميون مر للعذاب، خلال فترة المقاطعة، واشتد عليهم الجوع، وكانت قريش تنتظر أن يتخلى بنو هاشم عن محمد، فيهون عندئذ عليها أمره ، ولكن بعض زعماء للقوم أرادوا نقض للصحيفة ، وإنهاء المقاطعة ،

ومنهم : هشام بن عمرو بن ربيعة ، الذي أشفق على محمد وصحبه في تلك الشعب ، فكان يأتي بالبعير محملا بالطعام ، ويسير به في الليل ، حتى يصل به إلى فم الشعب ، فيخلع خطامه ، ثم يضرب على جنبيه ، فيدخل البعير عليهم . وأخيراً قصد هشام هذا زهير بن أبي أميه ، وكانت أمه ، عاتكة بنت عبدالمطلب ، عمة للرسول (ص) ، فقال له : « يا زهير ، أرضيت أن تأكل الطعام ، وتلبس الثياب ، وتنكح النساء ، وأخوالك حيث قد علمت ، لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ؟ »

وتعاهد هشام وزهير على نقض الصحيفة ، واتفق معهما على ذلك : المطعم بن عدى ، وأبو البختري بن هشام ، وزمعة بن الأسود ، واتفق الخمسة على خطة لنقض الصحيفة ، وذهب زهير إلى الكعبة ، فطاف بها سبعاً ، ثم نادى بالناس : « يا أهل مكة ، أنأكل الطعام ، ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكى ، لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة . وصاح به أبو جهل ، وقال : « كذبت والله لا تشق » فصاح المتفقون الأربعة ، وأيدوا زهيراً . وشعر أبو جهل باجماع القوم على تمزيق الصحيفة ، وخشى مخالفتهم ، وقام المطعم ابن عدى بتمزيق الصحيفة ، وقيل أنه لم يجد من كتابتها إلا « باسمك اللهم » ، وقد أتت الأرضة على البقية منها . وانتهت بذلك المقاطعة ، عاد محمد (ص) وبنو هاشم إلى مكة . وبعد عدة شهور من انتهاء المقاطعة ، وعودة محمد وأقاربه من الشعب إلى مكة ، فجع الرسول

(ص) بموت عمه ، أبي طالب، وقد نيف على الثمانين، وخسر بموته حامياً ، يمنع عنه أذى قريش .

وقد روى أن بعض أشراف قريش قصدوا أبا طالب، قبيل وفاته، طالبين منه أن يضع حداً بينهم وبين ابن أخيه ، وقبلوا أن يكفوا عنه ، فليكف عن آلهتهم « وليدعنا ودیننا وندعه ودينه» ، وكان الجواب من محمد (ص) بالذات : « تقولون لا إله إلا الله ، وتخلعون ماتعبدون من دونه ». وأخفقت بذلك محاولتهم ، وقيل إن أبا طالب كان يعتقد في صدق رسالة ابن أخيه ، ولكنه كان يخشى السبة والعار، إذا ترك ما كان يعبد آباؤه .

وبعد وفاة أبي طالب ، فجع محمد (ص) بوفاة زوجه خديجة ، فخسر بموتها القلب الكبير ، والصدر الحنون ، والنصير المؤمن، ومن كان للرسول (ص) يجد في قربها ما يخفف عنه أذى قومه ، واضطهاد المشركين له ، ولدعوته .

وكانت هاتان الفاجعتان في عام واحد ؛ سمي عام الحزن ، ولكن محمداً صبر على قضاء ربه ، كما صبر على ازدياد أذى قومه ، وقد أغراهم به موت عمه أبي طالب . وقد روي عن الرسول (ص) قوله : « ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه ، حتى مات ابو طالب » . وقد اعترضه أحد سفهاء قريش ، فرمى على رأسه ترابا ، فدخل الرسول (ص) إلى البيت فقامت بنته فاطمة تبكي ، وتغسل رأس أبيها من التراب . فقال لها « لاتبكي يابنية ، فإن الله مانع أباك » .

ضاق الرسول الكريم (ص) ذرعا بمشركي قريش، وعنادهم، وإصرارهم على شركهم ووثنيتهم، وطال صبره على أذاهم، وفكر في الذهاب إلى الطائف، لعله يجد النصرة من قبيلة ثقيف، فيشتد بها أمره وسار وحيدا، دون أن يعلم أحد بأمره، وعرض على بعض زعماء بني ثقيف دينه، ودعاهم إلى الإسلام، فكان ردهم قبيحا، فرجاهم أن يكتموا أمره: فقد كره أن تسمع قريش بما فعل بنو ثقيف، فيزيد ذلك من إيذائهم له، ويشمتون به. لكن أولئك قاموا بإغراء سفهائهم به، يسبونه، ويصيحون في وجهه، حتى اضطر للالتجاء إلى حائط لعتبة وشيبه، ابني ربيعة، احتمى به، وعاد السفهاء عنه.

وأصابه إعياء، شديد، وحزن عظيم، فالتجأ إلى ربه متضرعا، وهو يقول: (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني: أ إلى بعيد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك، الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو تحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك). ووصل خبره إلى قريش، وزاد في غضبها عليه محاولته الاستنصار بثقيف، فعزم المشركون على منعه من دخول مكة فطلب محمد (ص) الحماية من «المطعم بن عدى»، فخرج هذا بالسلاح مع بنيه، وأدخلوا محمداً في حمايتهم، إلى مكة. لكن موجة الأذى

والاضطهاد استمرت تلاحق المسلمين المستضعفين، وللرسول الأمين.

لقد أفاد للرسول (ص) من مواسم الحج، فصار يخرج، فيلتقي بوفود القبائل، الآتية إلى مكة، ومنهم من سمع عن دعـوته، فكان يدعوهم إلى ترك ما كان يعبـد أباؤهم من الأصنام والأوثان، وأن يؤمنوا بالله الواحد القهار، وألا يشركوا به شيئاً. وكان عمه، أبولهب يخطب في الوفـود، مكـذبا ابن أخيه، فيقـول: (إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، إلى ماجاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه). اما تلك الوفود فكانت تجيب محمداً بالرفض، أو بالرد القبيح.

في ليلة، كان يقضيها في بيت إبنة عمه، هند بنت أبي طالب، وكنيتها أم هاني، أسرى برسول الله (ص) من مكة إلى بيت المقدس، ونزلت في ذلك الآية: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، الذي باركنا حوله، لنريه من آياتنا، إنه السـميع البصير). وقد ورد المعراج في أحاديث الرسول (ص)، وهو عروجه إلى السماء. وقد ذكرت هند ذلك بقـولها: «إن رسول الله نام عنـدي تلك الليلة، في بيتي، فصلى العشاء الآخرة، ثم نام، ونمنا. فلما كان قبيل الفجر، أهبنـا رسول الله، فلما صلى الصبح، وصلينا معـه، قال: يا أم هاني، لقد صليت معكم العشـاء الآخرة، كما رأيت بهـذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس، فصليت فيه، ثم قد صليت الغداة معكم الآن، كما

ترين . فقلت له : « يانبي الله ، لاتحـدث به الناس فيكذبوك » . قال : « والله لأحدثهموه ».

واختلف الفقهاء حول الإسراء : هل كان بروح الرسـول (ص) ؟ أم بروحه وجسده ؟ أما عائشة فروي أنها قالت : مافقد جسد رسول الله (ص)، ولكن الله أسرى بروحه . وسئل معاوية بن أبي سفيان عن الإسراء فقـال : « كانت رؤيا من الله صادقة». ومن الطبيعي أن تكذب قريش رسول الله (ص) في هـذا الحادث . ومن الطبيعي أن يقف بعض المسلمين موقف الذهول والشك ، عند سماعهم بالإسراء والمعراج ، وذلك أن هؤلاء وأولئك إنما كانوا يقفون عند الحـدود المادية ، ويجدون عندئذ استحالة وقوع هذا الحادث، ولن يستطيع مثل هذا النفر من البشر أن يتجاوزوا بتفكيرهم هذه الحدود ، وأن يصلوا إلى المجالات الروحية الواسعة .

أما أبو بكر الصديق ، عندما حدثوه بذلك ، قال: « والله لئن كان قد قاله ، فقدصدق»، ثقة منه بالرسول الأمين، وإيمـاناً بصدق دعوته. وارتد بعض المسلمين عن إسلامهم ، على أثر حديث الإسراء . وبعد حادثة الإسراء مبـاشرة ، فرضت الصلاة ، بأوقاتها الخمسة المعروفة ، وبعدد ركعاتها . وقد أخبر الرسول (ص) بأن جبريل عليه السلام نزل ، وعلمه الصلاة ، وحدد له أوقاتها، وعدد ركعاتها . وكان محمد (ص) ، حتى ذلك الوقت ، يصلي ركعتين صبـاحاً ، ومثلهما مسـاء ، كصلاة ابراهيم عليه السلام .

لقد كانت هناك عوامل عدة ، جعلت أهل يثرب أقرب لتقبل دعوة الإسلام من أهل مكة : فلم تكن ، كديانة سماوية ، تدعو إلى التوحيد وترك الوثنية والشرك ، بعيدة عن إدراكهم أو مفاهيمهم : فقد كان عرب يثرب من الأوس والخزرج يجاورون اليهود ، وكثيرا ما سمعوا عن دينهم السماوي ، وما فيه من توحيد وايمان بالبعث والحساب والأنبياء والكتب المقدسة ، فلم تكن دعوة محمد غريبة عنهم ، ولم تصدمهم بمفاهيمها ومبادئها ، كما فعلت بمشركي مكة . يضاف إلى ذلك عامل المنافسة بين مكة ويثرب ، فقد كان عرب يثرب من أزد اليمن ، وكانوا يجدون في مكة مدينة تنافسهم فيها قريش ، وتسمو عليهم بكعبتها ، ومركزها الديني بين العرب . وعلى الرغم من فقر مكة ، وخصب يثرب ؛ فقد عوضت الأولى نقصها بأسواقها التجارية ؛ وقدسيتها الدينية ، واستأثرت باهتمام العرب ؛ وغدت محجاً لهم ؛ فازدهر اقتصادها ، وتدفقت الأرباح على تجارتها ، فكان للعامل الاقتصادي يلعب دوراً كبيراً في المنافسة بين المدينتين . وكان أهل يثرب يجدون في الدعوة الجديدة ، إلى جانب إيمانهم بصدق رسولها ، دعوة ربما تعطيهم مركز الصدارة ، لتصبح يثرب محج العرب ، فترتفع على منافستها ، مكة . وكان هناك كذلك عامل سياسي : وهو ما كانت عليه قبيلتا الأوس والخزرج من نزاع مستمر ، حول الزعامة والحكم ، مما لا يفيد منه إلا اليهود المقيمون بأرضهم ؛ قد وجدوا في الدين الجديد دعوة ، توحد صفوفهم ، وتجمع كلمتهم ، وتنهي حالة النزاع

والقتال بينهم . وربما كانت هزيمة الخزرج ، في آخر تلك المعارك ، (يوم بعاث) ، من الأسباب التي جعلتها أكثر إقبالا على الإسلام ، واعتناقاً له ، من الأوس ، خاصة وأن صاحب الدعوة « محمد بن عبدالله » على الرغم من أنه من قريش لم يكن غريباً عن الخزرج : فجده الثاني ، هاشم ، كان قد تزوج إحدى بنات الخزرج ، وجده ، عبدالمطلب (شيبة) ، تربي في رعاية أخواله ، الخزرجيين ، في يثرب ، وأبوه ، عبدالله ، توفي ، ودفن ، في يثرب ، وأمه زارت يثرب ، وكان هو برفقتها ، وتوفيت ، ودفنت في إحدى قرى يثرب (الأبواء). وعلى ذلك فلم يكن محمد مجهولا من اليثربيين عامة ، ومن أبناء الخزرج خاصة : فهو حفيد أختهم ، وأخواله من بني النجار من أسرة الخزرج. هذا بالإضافة إلى ما سمعوه عن سيرته وصدقه وأمانته في قومه . وقد روي ابن هشام في السيرة عن بعض الأنصار من اليثربيين قولهم : (لقد دعانا إلى الإسلام ، مع رحمة الله وهداه ، ما كنا نسمع من رجال لليهود : كنا أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب ، عندهم علم ليس لنا. وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون ، قالوا لنا : « إنه تقارب زمان نبي ، يبعث الآن ، نقتلكم معه ، قتل عاد وإرم ...» فلما بعث الله رسوله (ص) أجبناه ، حين دعانا إلى الله ، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم إليه ، فآمنا به ، وكفروا به ...) .

وفي العام التالي ليوم بعاث ، أي في السنة الحادية عشر للبعثة ، أقبل جماعة من الخزرج ، في موسم الحج ، بينهم ستة من سادات الخزرج ، وكانوا يبحثون عن حليف ، يوحد كلمتهم مع الأوس ، أو يساعدهم

في التغلب على خصومهم ، الأوسيين . فلقيهم الرسول (ص) ، عند العقبة - وهي موضع بين منى ومكة ، وتبعد عن مكة حوالي ميلين - ودعاهم إلى الإسلام ، فقال بعضهم لبعض : « والله إنه للنبي ، الذي تواعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه » . وأجاب هذا النفر محمدا (ص) إلى دعوته ، واعتنقوا دينه ، وآمنوا بنبوته ، وقالوا له : « إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، وسنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه ، فلا رجل أعز منك » . انصرف هؤلاء عن رسول الله (ص) راجعين إلى بلادهم ، وقد آمنوا وصدقوا ، فلما قدموا المدينة إلى قومهم ، ذكروا لهم رسول الله (ص) ، ودعوهم إلى الإسلام ، حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله (ص) . كان الجو ، في يثرب ، مهيأ لتقبل دعوة الإسلام ، وتفتحت قلوب اليثربيين ، من الأوس والخزرج ، للأسلام ، ولم يجدوا في مبادئه شيئاً غريباً عما سمعوه من أصحاب الكتب السماوية ، وكأنهم كانوا ينتظرون ما يوحد كلمتهم ، ويجمع قلوبهم ، بعد طول نزاع وخلاف ، فأملوا أن يكون للدين الجديد موحدا لهم ، وجامعا لكلمتهم ، فأقبلوا عليه .

وفي الموسم التالي للحج ، أي في السنة الثانية عشرة من البعثة النبوية ، التقى رسول الله (ص) باثني عشر رجلا من أهل يثرب ، عشرة من الخزرج ، واثنان من الأوس ، في موضع للعقبة ، فأعلنوا إسلامهم ، وبايعوا الرسول (ص) . وذكر أن هذه البيعة حضرتها « عفراء بنت عبيد ابن ثعلبة » ، وكانت أول امرأة بايعت الرسول (ص) . وأرسل محمد (ص)

معهم مصعب بن عمير يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، وكانوا يسمونه المقرىء. وبعد عودة هـذا النفر إلى يثرب، ازداد الإسلام انتشاراً بين أهلها، حتى لم تبق فيها دار إلا وفيها مسلمون ومسلمات.

لقد نجح مصعب في مهمتـه بيثرب، وعاد، قبل حلول موسم الحج، ليحمل إلى الرسـول (ص) الأنبـاء عن كثرة انتشـار الإسلام بين أهل يثرب، وأخبره عن قدوم أفواج جديدة لتلقاه، في نفس مكـان البيعـة الأولى، أي في العقبـة. وحان الميعـاد وانتهى الناس من تأدية مراسيم الحج، وتسلل تحت جنح الظلام عشرات من أهل يثرب، وخرجوا من مكة خفية، وبلغ عددهم خمسة وسبعين نفساً (اثنين وستين رجلا من الخزرج، وأحـد عشر من الأوس، وامرأتان)، وخرج مع محمد (ص)، وإلى هذا الاجتماع، عمه، للعباس، وكان لايزال على الشرك، وهو الذي بدأ الكلام، فقال: «يا معشر الخزرج، إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيـه، فهو في عز من قومـه، ومنعة في بلده، وإنه أبى إلا الانحياز إليـكم، واللحاق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، وما نعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه، بعد الخروج به إليكم، فمن الآن، فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده».

ومما هو جدير بالملاحظة في هذا المقام، أن العم، الذي خرج مع محمد (ص)، ليستوثق له من عزم أهل يثرب في نصرته، هو العباس، الذي مازال على الشرك، ولم يخرج العم المسـلم، حمزه. وكأنه أراد

بذلك أن يفهم أهل يثرب ، ويؤكد لهم ، أن المشركين من بني هاشم لايقلون عن المسلمين في رعايتهم لمحمد (ص) وحمايتهم له .

أما قول العباس « وإنه أبى إلا الانحياز إليكم واللحاق بكم » ، فيدل على تفكير محمد (ص) في اللحاق بيثرب ، والاعتماد على أهلها ، وأنه ربما تحدث مع بني هاشم في ذلك ، فأرادوا الاطمئنان عليه ، فخرج معه العباس ليتأكد من سلامة موقف اليثربيين . وكان جواب أهل يثرب على كلام العباس :

« قد سمعنا ماقلت ، فتكلم يارسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما احببت . » فتكلم الرسول (ص) ، فتلا شيئا من القرآن الكريم ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام ، ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » . فقام البراء بن معرور ، فأخذ بيده وقال : « نعم ، والذي بعثك بالحق ، لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعنا ، يارسول الله ، فنحن والله أهل الحروب ، وأهل الحلقة ، ورثناها كابرا عن كابر . » فقاطع الكلام أبو الهيثم بن التيهان ، وقال: «يارسول الله ، إن بيننا وبين الرجال - يعني اليهود - حبالا ، وإنا قاطعوها فهل عسيت ، إن نحن فعلنا ذلك ، ثم اظهرك الله ، أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ »

فتبسم رسول الله (ص) وقال : « بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم ، وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم » .

ونلاحظ هنا في قول أبي الهيثم صراحة العربي ، فحين رأى العهد يكاد يتم في كلام البراء بن معرور ، أراد أن يوضح نقطة هامة تتصل بالمستقبل ، وبمصير علاقتهم بيهود يثرب . وكان جواب الرسول

(ص) صريحاً واضحاً ، بأن حلفه معهم على السراء والضراء . ثم قال الرسول (ص) لهم : « اخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم » . فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً : تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس .

قال للعباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري : « يامعشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ » قالوا : « نعم » . فقال : « أنكم تبايعون على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا هلكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلا ، أسلمتموه ، فمن الآن . فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والأخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، عن نهكة الأموال ، وقتل الأشراف ، فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة » فقالوا « فإنا نأخذه على مصيبة الأموال ، وقتل الأشراف . فما لنا يارسول الله ، إن نحن وفينا ؟» قال : « الجنة » . قالوا « ابسط يدك » . فبسط يده ، فبايعوه .

بدأ الرسول (ص) ، في بيعة العقبة الثانية هذه ، أول خطوة في التنظيم باختيار النقباء ، ويأخذ العهد على أنصاره من أهل يثرب ، أن يكون وإياهم يداً واحدة ، في السلم والحرب ، فأوجد بذلك قاعدة ، يعتمد عليها في يثرب ، ويركن إليها ، ويلتحق بها ، عند الضرورة .

وبحثت قريش ، غداة البيعة ، وقد وصلتها أخبار مضطربة عن اجتماع محمد (ص) بأهل يثرب ، وأنكر مشركوا يثرب ان يكونوا قد اجتمعوا بصاحب مكة ـ محمد ـ وأقسموا على ذلك ، وهم لايدرون حقيقة الخبر . وبعد ارتحال القوم ، جدت قريش في البحث ، وتأكدت أن اجتماعاً قد تم فعلا ، بين محمد (ص) وجماعات من أهل يثرب ،

وخرجت تطلب القوم ، فأدركت منهم سعد بن عبادة ، فأخذه مشركو قريش ، وربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله ، ثم أقبلوا به ، حتى أدخلوه مكة ، يضربونه ، ويجذبونه بجمته ، وكان ذا شعر كثير . وقد أنقذه ، وحماه من أيدي القوم ، « جبير بن مطعم بن عدي » ، والحارث ابن أمية » ، لأنه كان يجير لهما من يخرج بتجارتهما ، حين مرورهم إلى يثرب ، في الطريق إلى الشام .